السلسلة الثانية: مدونة الآثار العثمانية رقم 8

الأخ الأستاذ خالد لبيدار
مع التقدير
2007.5.26

أعمال المؤتمر العالمي الخامس لمدونة الآثار العثمانية
المنعقد فيما بين 21 - 23 سبتمبر 2001 حول:

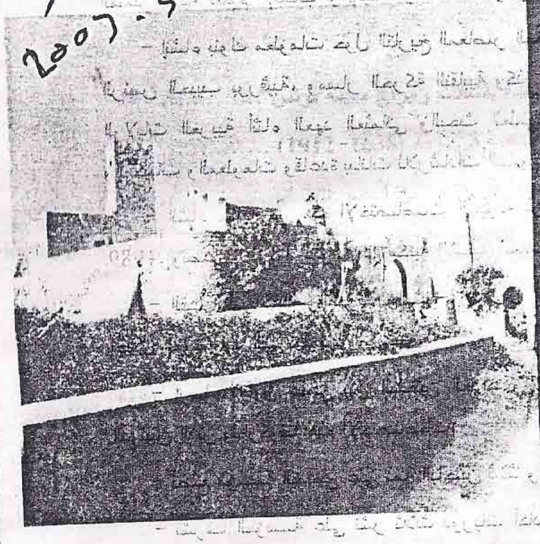

القلاع والتحصينات العسكرية والتأثيرات الفنية العثمانية

إشراف وتقديم:
الأستاذ المتميز د. عبد الجليل التميمي

منشورات:
مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات
فيفري / شباط 2003

Série 2 : Archéologie Ottomane N° 8

Actes du Ve Congrés international d'Archéologie Ottomane
tenu les 21, 22 et 23 septembre 2001 sur :

tadelles, Fortifications ilitaires & influences rtistiques ottomanes

Sous la direction du Prof. Emérite Abdeljelil TEMIMI

Publications de la :
Fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et l'Information
Zaghouan, Février 2003

منشورات
مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات
المدير المسؤول
الأستاذ المتميز د. عبد الجليل التميمي

من نشاط المؤسسة :

أنشئت هذه المؤسسة منذ سبعة عشر سنة بمدينة زغوان من قبل د. عبد الجليل التميمي، الأستاذ المتميّز بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية لجامعة تونس. ومن أهدافها :

– إنشاء بنوك معلومات حول التاريخ المعاصر المغاربي والعربي والتركي بما في ذلك فترة حكم الرئيس الحبيب بورقيبة، ومسار الحركة النقابية وكذا حول الدراسات الموريسكية–الأندلسية وتاريخ الولايات العربية أثناء العهد العثماني والبحث العلمي والآثار العثمانية في العالم وعلم الأرشيف والمكتبات والمعلومات وقاعدة بيانات للإرشادات البيليوغرافية بالموضوعات السالفة الذكر.

– إنشاء مكتبة في هذه الإختصاصات الحيوية من المعرفة وقد افتتحت هذه المكتبة في مارس 1989. وتضم 18.000 عنوانا هي مكتبة الأستاذ التميمي الشخصية.

– القيام بالدراسات والبحوث والنشر في مجال الدراسات السالفة الذكر ؛ وقد تم نشر جميع أعمال المؤتمرات التي نظمتها المؤسسة.

– إرساء تعاون علمي بين الباحثين العرب والأتراك والفرنسيين والإسبان وكل المتخصصين الدوليين الذين يشاركوننا هذه الإختصاصات.

– تضع مؤسسة التميمي على ذمة الباحثين ثلاثا وعشرين شقة لإقامتهم وإجراء بحوثهم.

– تشرف المؤسسة على نشر ثلاث دوريات أكاديمية هي : **المجلة التاريخية المغاربية** التي بدأ صدورها منذ سنة 1974 وقد صدر العددان 109 و110 في شهر جانفي / كانون الثاني 2003 و**المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، والتي صدر منها العدد 26 في شهر سبتمبر/ أيلول 2002، و**المجلة العربية للأرشيف والتوثيق والمعلومات**، والتي صدر منها العددان 11 و12 في شهر ديسمبر/ كانون الأول 2002.

كما نشرت المؤسسة 125 كتابا في كل تخصصاتها وبعدة لغات. وهذا ما جعل المؤسسة من أنشط المخابر المعرفية الخاصة على الصعيدين العربي والإسلامي في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وقد نظمت المؤسسة 70 مؤتمرا على المستويين العربي والدولي، وتوفقت في إثراء الحوار الأكاديمي لمئات المتخصصين العرب والدوليين.

كشاف الموضوعات

1 – القسم العربي

الصفحة

– د. التميمي، عبد الجليل.– مستقبل البحوث الأثرية حول المدونة العثمانية 5
– خطاب د. عبد الجليل التميمي 7
– خطاب د. عبد الرؤوف المهبولي رئيس جامعة تونس 9
– خطاب د. ماخيال كيل باسم المشاركين 13

البحوث :

– جراي، فتحي. – النقائش التخليدية العثمانية بقشلات وأبراج مدينة تونس 15
– د. الدراجي، سعدي إبراهيم. – القلاع العثمانية في برقة (1638–1912) 35
– د. عبد النور، حسن محمد نور. – تحف خشبية جديدة من العصر العثماني 65
– د. عبيد، منير. – الخان التونسي بإزمير : مؤسسة خيرية تونسية خارج الإيالة 99
– د. دافي، ميشال.– من السور إلى قشلة وسرايا بيروت (ق 19– 20) (ملخص) 109
– البيان الختامي للمؤتمر 111
– كشاف أسماء الأعلام والمجموعات 113
– كشاف أسماء الأماكن الجغرافية 115
– منشورات المؤسسة حول مدونة الآثار العثمانية 117

2 – القسم الفرنسي والإنقليزي

– د. التميمي، عبد الجليل.– مستقبل البحوث الأثرية حول المدونة العثمانية 7
– خطاب د. عبد الجليل التميمي 9
– خطاب د. ماخيال كيل باسم المشاركين 11

البحوث :

– دافي، مي. – من برج علي إلى دار بني دبانه : العمارة التركية في صيدا في القرن الثامن عشر 13

- دافي، ميشال. – من السور إلى قشلة وسرايا بيروت (ق 19-20) 25
- د. دميزسار أرلي، بلجن. – خزف العهد العثماني الأخير في العمارة الإسلامية والمسيحية بالقدس 35
- د. العودي العدوني، رجاء. – نقيشتان عثمانيتان بأسبلة مدينة تونس 69
- د. القفصي سلامة، عبد الحكيم. – بخصوص خندق برج باب تونس ببلدة غار الملح الموريسكية الأندلسية 77
- د. كيل، ماخيال. – التأثير الإسلامي على الفن المسيحي : العمارة العثمانية والأديرة الصربية الأرثوذكسية بشمال البوسنة 87
- د. السعداوي، أحمد. – الأوقاف المحبسة على قشلات مدينة تونس في عهد حمودة باشا 95
- سنكلار، توم. – قلعتان عثمانيتان : باياس (Payas) ودوغوبايزيد (Doğubayazit) . 139
- تنمان، محمد بهاء. – تأثير العمارة العثمانية في البنايات الدينية والمدنية للمجموعة اليونانية الأرثوذكسية : نماذج إستانبول والأناضول وجزر بحر إيجه 187

موجز بعض البحوث المنشورة بالعربية : 211

- البيان الختامي للمؤتمر 213
- كشاف 215
- منشورات المؤسسة حول مدونة الآثار العثمانية 219

القلاع العثمانية في برقة 1638 – 1912م

د. سعدي إبراهيم الدراجي
قسم الآثار – جامعة قاريونس

المقدمة :

كان من المؤمل بدءا، أن تقتصر الدراسة على قلعة (توكرة) تلبية لمقترح قدمه لي أحد الزملاء الذين عملوا في حقل التنقيب في هذه المدينة العريقة، وبعد أن قطعت شوطا من البحث والتقصي الميداني تكشفت لي أهمية الموضوع بوصفه بكرا، وأن المكتبة العربية بأمس الحاجة إلى هذا البحث الذي يعتمد أساسا على الدراسة الميدانية لذلك سعيت إلى استكمال حلقات هذه السلسلة من دراسة تاريخ القلاع في ليبيا.

وفي الواقع لم يكن لنا الخيار في انتخاب أمثلة تتناولها الدارسة في إقليم برقة بل اعتمدنا على ما وجدناه قائما في (القيقب وتوكرة) ويعود تاريخه إلى العصر العثماني، فضلا عن باقي القلاع الأخرى المزالة التي وصفها أو صورها لنا الرحالة في كل من (بنغازي ودرنه والمرج)، ويمكن أن يعزى سبب بقاء بعض القلاع في منطقة الدراسة حتى الوقت الحاضر إلى أسباب عديدة أهمها أن تلك القلاع كانت قائمة خارج المدن التي شهدت بعد الحرب العالمية الأولى نهضة عمرانية كبيرة على حساب موروثها الحضاري ولعل استمرار استغلال تلك القلاع من قبل القوات العسكرية في مختلف الحقب التاريخية جعلها في منأى عن العابثين الذين دأبوا على انتزاع الحجارة من المباني الأثرية واستخدامها في بناء بيوتهم. بيد أن هذا لا يعني أن القلاع التي تناولتها الدراسة كانت بمنأى عن أعمال التجديد والإضافة التي غيرت معالمها الأصلية كلا أو جزءا. لذلك تطلب الأمر عند تخطيطها تحري الدقة والحيطة والحذر كي لا يختلط القديم بالمضاف والأصيل بالمجدد.

وطبيعي أن يشهد الإقليم في الحقب التاريخية المتعاقبة حركات تقلص وامتداد إذ لا ثبات في حصر المفهوم الجغرافي برقعة معينة لأنه متغير مع الظروف والزمن، ووفق هذه النظرة العامة، أصبح من المتعذر علينا في هذا البحث المتواضع متابعة حركة التغير التي أصابت إقليم برقة حتى نهاية العصر العثماني، وبقدر تعلق الأمر بموضوع القلاع، فإن منطقة الدراسة التي امتدت من بنغازي وحتى درنة كانت في كل العصور تتوسط الحدود الشمالية للإقليم من جهة الساحل.

والحقيقة أن قد آثرنا الابتعاد عن تحصينات المدن الصحراوية الواقعة جنوبي الإقليم لاعتبارات منهجية أو خشية أن يكون توسعنا على حساب المادة العلمية.

ونظرا لطبيعة الدراسة ووفق منهجها، فقد قسم الموضوع إلى خمسة مباحث، مبحث خاص لكل قلعة، اعتمدنا في دراستها على المصادر التاريخية وكتب الرحالة بالدرجة الأساس، فقد حاولنا دراستها من حيث الموقع والإسم وتاريخ البناء والوظيفة ثم أتينا على وصفها برؤية معمارية معتمدين في ذلك على التخطيطات والصور التي خلصت إلينا من الرحالة الأجانب الذين زاروا برقة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وقد اتبعنا التسلسل الزمني عند ترتيب القلاع، ووفق ذلك جاءت قلعة بنغازي في مقدمة المباحث بوصفها من أقدم الآثار العثمانية المشيدة في إقليم برقة، حيث سعى الأتراك إلى تأسيسها بعد سيطرتهم لأول مرة على بلدة بنغازي عام 1638م، أما باقي القلاع موضوع البحث فهي مشيدة خلال القرن التاسع عشر، ما عدا قلعة توكرة المبنية على الأرجح في بداية القرن العشرين. لذلك تم تحديد فترة البحث بين عامي (1638 و1912م)، والتاريخ الأخير يمثل وقوع ليبيا بيد الاحتلال الإيطالي وفق معاهدة لوزان.

1 – قلعة بنغازي :

تقع قلعة بنغازي على ساحل البحر مباشرة، قبالة البلدة القديمة وقد وصفت بأنها مقامة على أنقاض مبنى أثري قديم، تم تحديد موضعه بجانب المدخل المؤدي إلى الميناء (1). ولا شك أن لموقعها هذا أهمية سوقية، إذ يؤمن لها خطوط دفاعها في حالات الحصار، ويضمن تنشيط حركة التجارة وحماية الساحل من خطر القراصنة ولصوص البحر.

وليس بالوسع الإتيان على جميع الأحداث التاريخية التي ترتبط بتاريخ هذه القلعة لأنها كثيرة (2) وتنسب المصادر بناءها إلى الأتراك الذين قادوا حملة عسكرية عام 1638 كان هدفها إخضاع إقليم برقة وأوجله، والسيطرة على حركة القوافل القادمة من الجنوب، وتضيف تلك المصادر إلى أن بناءها تطلب سنة كاملة وقد تم بواسطة الأسرى النصارى الذين رافقوا تلك

(1) بيتشي، هنري وفريدرك، **الأخوان بيتشي والساحل الليبي (1821 – 1822م)**، ترجمة الهادي أبو لقمة، منشورات جامعة قاريونس بنغازي (1966)، ص 205.

Smith, M, & Porcher, E., *History of the Recent Discoveries at Cyrene*. London, 1864, p. 14.

(2) نظرا لكثرة الأحداث التاريخية المرتبطة بتاريخ قلعة بنغازي، فقد آثرنا أن نفرد لها بحثا مستقلا ناقشنا من خلاله الأراء التي قيلت بشأن تاريخ بنائها وتجديدها، وأتينا على ذكر الحوادث التي مرت بها، كما وقفنا على تخطيطها وعمارتها من خلال المصادر وبعض الصور.

الحملة القادمة من طرابلس وكان عددهم ثلاثمائة أسير وبعد أن استتب الأمر للأتراك خصصوا للقلعة حامية قوامها مائة جندي من الانكشارية وزودوها بعشرة مدافع (3).

ومن الطبيعي أن تثير القلعة موضوع البحث انتباه بعض الرحالة الأجانب الذين جابوا المنطقة خلال القرن التاسع عشر بوصفها من أهم معالم المدينة التي تأوي حاميتها العسكرية فضلا عن كونها مقرا لحاكم برقة خلال العهدين العثماني الأول والقرمانلي.

إن أفضل من وصف القلعة وعين موضعها على الخارطة هما الأخوان بيتشي عام (1822) عندما كانا يسعيان للظفر بزيارة حاكم بنغازي آنذاك (خليل بيك) القاطن مع أسرته وخدمه داخل القلعة، حيث أتاحت لهما هذه الزيارة فرصة مشاهدة القلعة من الداخل والاطلاع على بعض أقسامها، وهي مربعة الشكل عززت ثلاث من زواياها بأبراج دائرية مزودة بالمدافع، في حين تركت الزاوية الرابعة المواجهة للميناء دونما تحصين لأنها ضمت مجمعا سكنيا خاصا بعائلة (ألبي)، وصف بأنه كان يفوق الأبراج ارتفاعا ويبدو أن هذه الزاوية من القلعة كانت قريبة جدا من الماء، ومعرضة على الدوام لارتطام الأمواج الأمر الذي جعل الأخوان بيتشي يتخيلان طريقة جلوس النسوة في هذا الركن لاستقبال النسيم البارد في فصل الصيف والتمتع بالمناظر الخلابة بعرض البحر من خلال النوافذ المحمية بقضبان الحديد، بعيدا عن عيون الغرباء (4).

لقد اتخذ حاكم المدينة إحدى حجرات القلعة مجلسا لاستقبال الضيوف والقناصل ووصفت تلك الحجرة بأنها واسعة المساحة ونظيفة للغاية ومكسية بطبقة من الملاط، وكان ألبي يتصدرها وبجانبه كبار الموظفين والحرس وبعض المشائخ (5).

وبشكل عام فإن القلعة التي تقدم الكلام عنها لم تعد قادرة خلال القرن التاسع عشر على تلبية متطلبات المرحلة الجديدة، كما أنها لا تتواءم مع تطور فن صناعة الأسلحة لا سيما المدفعية. فضلا عن كونها آيلة إلى السقوط بسبب تقادم الزمن والتخريب الذي تعرضت له من جراء العمليات العسكرية التي توالت عليها منذ تأسيسها عام 1638م ومما يؤكد ذلك هو ما كتبه الطبيب الإيطالي دي لاشيلا (1817) الذي أشار إلى هشاشة البناء وتوقع سقوط الأجزاء العلوية من

(3) فيرو، شارل، **الحوليات الليبية منذ الفتح العربي وحتى الغزو الإيطالي**، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ط 3، بنغازي 1966، ص 148. برنيا، كوستانزيو، **طرابلس من 1510 – 1850**، تعريب خليفة محمد التليسي، دار غندور للطباعة والنشر، طرابلس، 1969، ص 153.

(4) بيتشي، هنري وفريدرك، **نفس المصدر**، ص 206.

(5) **المصدر نفسه**، ص 207.

جدران القلعة عند الرمي، لعدم مقاومتها الاهتزاز الذي تحدثه المدافع (6)، كما ذهب إلى ذات المعنى الأخوان بيتشي (1822) ووصفا البناء بأنه قديم وغير متماسك.

إلى درجة أن (البي) نفسه طلب من ربان إحدى السفن الحربية الزائرة عدم إطلاق المدافع للتحية المعتادة في مثل هذه المناسبات وذلك خوفا أن يؤدي الاهتزاز إلى تهدم أجزاء من القلعة (7).

إن سقوط الأسرة القرمانلية وعودة بنغازي إلى حضيرة الدولة كان إيذانا ببدء عهد جديد، شهدت في ظله المدينة ازدهارا ملموسا في كافة نواحي الحياة ومنها الجانب العمراني الذي شمل تجديد القلعة فأعيد بناؤها في عام 1942م على الطراز القديم (8) ومن الواضح أن القلعة الجديدة لا تختلف كثيرا عن القلعة العثمانية الأولى التي وصفها الأخوان بيتشي، إلا أنها أكثر سعة من سابقتها، وأغلب الظن أن الأتراك قد أعادوا بناءها بالحجارة القديمة نفسها، وهي تخلو من الزيادات التي آثر الحكام إضافتها في العهود السابقة لإقامة أسرهم وفضلوا الإقامة في قصور فخمة بنيت وسط المزارع في ضواحي المدينة.

فنحن هنا بصدد دراسة قلعة جديدة، أول من وقف عليها من الرحالة الأجانب الإنكليزي هاملتون عام (1852)، بيد أن هاملتون لم يقدم عنها معلومات كثيرة واكتفى بالقول بأنها "بناء مربع الشكل تحيط به من كل جانب أبراج دائرية مقامة على ساحل البحر لا يبرز منها إلا بياضها الناصع، فهذا كل ما يصادف القادم إلى بنغازي من جهة البحر لأول وهلة" (9).

وإذا كان وصف هاملتون مقتضبا، فإن سمث وبورشير اللـذين أمّا بنغازي في أواخر عـام (1860) قد أسهبا في وصفها، وعززا ذلك الوصف بلوحة صورا فيها جانبا من المدينة ومينائها (صورة – 1) وتبدو القلعة في اللوحة التي رسمها الفنان بورشير بريشته مقامة على نشز من الأرض بكنف البحر مباشرة، وموقعها هذا يجعلها تشرف على المنطقة من جميع جهاتها وتسيطر على المدينة ومينائها وهي معززة بأبراج ركنية كبيرة ومزودة بمزاغل وفتحات واسعة كانت مخصصة للمدافع (10).

(6) دي لاشيلا، بأولو. أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة في عام 1817، ترجمة الهادي أبو لقمة، منشورات دار مكتبة الفكر، طرابلس 1968، ص 95 – 96.

(7) بيتشي، نفس المصدر، ص 205.

(8) تشايلد ر.ج، تاريخ مدينة بنغازي، ترجمة صالح جبريل، مطبعة وزارة الإعلام والثقافة، طرابلس، 1962، ص 33.

(9) هاملتون، جيمس، جولات في شمال افريقيا، تعريب المبروك محمد الصويعي، مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب (د. ت)، ص 26 – 27.

(10) Smith, M., op. cit., plate

ومن المؤكد أن المعلومات التي تركها سمث تعد في غاية الأهمية لا سيما تلك التي أشارت إلى بعض الأقسام الداخلية، ومنها سلسلة الحجرات التي كانت مخصصة لإيواء فوج من المشاة وكذلك السجن أما باقي البناء فيبدو أنه كان مخصصا للقائمقام ومجلسه والإدارة.

وبدهي أن تصبح القلعة أكثر وضوحا في الصورة الملتقطة بعدسة الرحالة الإيطالي دي مارتينو (11) عام 1907 وهي تبدو من القلاع التقليدية التي شاعت في معظم المدن والأقاليم الخاضعة للسيطرة العثمانية وقوامها ساحة مكشوفة تحيط بها من الجهات الأربعة قاعات تتكون من طابق واحد، وأغلب هذه القاعات كانت مخصصة لإيواء الجند، حيث زود بعدد كبير من النوافذ الصغيرة التي تنفتح على الخارج لتساعد على إضاءتها وتهويتها، والنوافذ في هذه القلعة متوجة بعقود منخفضة.

وهناك صورة أخرى (12) يظهر فيها المدخل الرئيس (صورة 2) وهو متوج بعقد نصف دائري يرتكز على دعامتين من الحجارة المنحوتة وقد شغلت فتحة المدخل بباب يتألف من مصراعين وفوق العقد توجد آثار للوح تذكاري لعله كان يحمل تاريخ التأسيس (13) تحيط بالسور أبراج اسطوانية ضخمة شغلت أركان البناء الأربعة وهي صلدة لتتحمل ثقل المدافع التي توضع عادة في صحن البرج من الأعلى وترمي عن طريق أربع فتحات كبيرة موزعة على محيط البرج بصورة منتظمة ومتساوية.

إن القلعة من الأعلى معززة بستارة يستطيع المدافع أن يحتمي خلفها في حالات الدفاع إذ زودت بصف من المزاغل التي يرمى منها بالبنادق، ومن الملاحظ أن المسافة بين مزغل وآخر لا يتعدى المترين وهذا العدد الكبير منها يتيح بلا شك للجند المدافعين السيطرة على الخارج إذا ما هوجمت من قبل الأعداء.

ومن الطبيعي أن يتراجع دور القلعة في أواخر العصر العثماني الثاني لا سيما عندما شرع الأتراك ببناء القشلة (14) (قصر البركة) وبعض المنشآت المحمية في ناحية البركة، ومن ذلك لم

(11) Martino, Q., *Cirene e Cartagine*, Bologna, 1908, p. 86-87.

(12) Mercatali, E., *Tripoli-Cirenaica*, vol. I, Milano, 1912, p. 412.

(13) اعتاد العثمانيون كتابة تاريخ بناء القلاع المشيدة برعايتهم في مختلف المدن الليبية على ألواح تذكارية تثبت عادة في البناء فوق عقد المدخل ويحتفظ المتحف الإسلامي بطرابلس بأمثلة منها. انظر : Rossi, Ettore, Le inscrizioni Arabe e Turche del Museo di Tripoli, Libya, 1953, p. 111-113. وانظر : أبو حامد، محمود الصديق، "نقوش كتابية في طرابلس من العهد العثماني"، **مجلة ليبيا القديمة**، العدد 9-10، 1972-1973، ص 35-41.

(14) قشلة أو قشلاق وهي لفظة تركية بمعنى (المشتى) وصارت فيما بعد اصطلاحا يطلق على ثكنة الجند، أي مكان تعسكر الجند وعدم خروجهم للحرب في فصل الشتاء (الانسي، محمد علي، **قاموس اللغة العثمانية**، المسمى **الدراري اللامعات في منتخبات اللغات**، مطبعة جريدة بيروت، 1318، ص 420.

تهجر كلية إلا بعد دخول القوات الإيطالية الغازية المدينة عام 1911 (15). ومما يؤكد وجودها بعيد هذه الفترة هو ما ذكره دي أوغسطيني أثناء حديثه عن محلات المدينة وعدها من بين المعالم القديمة المميزة لمحلة سيدي اغريبل وكانت في عهده (1922) مجرد أطلال هدم معظم أقسامها ما عدا برجين (16).

2 – القلعة الأمريكية في درنه :

تحدث باشو (1825) وبعض الرحالة الآخرين الذين أموا درنه خلال القرن التاسع عشر، عن عدد من القلاع كانت قائمة في مركز المدينة وضواحيها، ومن أهمها القلعة الداخلية، بوصفها مقر البيك ومأوى الحامية العسكرية. فضلا عن وجود قلاع أخرى صغيرة إحداها كانت قائمة قرب البحر، وأخرى وصفت بأنها ذات هندسة وعمارة جميلة (17). بيد أننا لا نستطيع في هذا البحث أن نؤرخ للقلاع المذكورة لقلة المعلومات في المصادر المتوافرة بين أيدينا من جهة واندثارها من جهة أخرى لذلك اقتصرت الدراسة على القلعة الأمريكية.

وقبل الحديث عن القلعة موضوع البحث، لا بد من الإشارة إلى طبيعة العلاقات الخارجية لولاية طرابلس في مطلع القرن التاسع عشر وما صاحبها من خلافات بسبب المنافسة الشديدة على التجارة، ونشاط القراصنة، فضلا عن طموح بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة إلى البحث عن إيجار مرفإ لها في البحر الأبيض المتوسط لتحقيق أهدافها التوسعية. كل ذلك أدى إلى شن حملات عسكرية بحرية على طرابلس، بيد أن فشل كافة الحملات التي قادتها الحكومة الأمريكية آنذاك دفعها عام (1805م) إلى الإقدام على غزو الأراضي الليبية برا عن طريق مصر، لكسر شوكة يوسف باشا القرمانلي وإجباره على التفاهم تحت التهديد وقد قاد هذه الحملة القنصل الأمريكي وليام ايتون الذي استطاع احتلال مدينة درنه وبناء قلعة فيها تكون مقرا له ولإدارة جيشه الذي كان يتهيأ للزحف على بنغازي. إلا أن إعلان وقف الحرب بين ولاية طرابلس والحكومة الأمريكية والتوصل إلى اتفاق أثناء عزمه بمواصلة احتلال برقة (18) ولم يترك الغزاة بعد انسحابهم من درنه سوى ستة مدافع وطاحونة ماء (19) فضلا عن القلعة التي نحن بصدد دراستها.

---

(15) تشايلد، **نفس المصدر**، ص 36.

(16) دي اوغسطيني، هنريكو، **سكان برقة دراسة تاريخية واتنوغرافية**. ترجمة إبراهيم احمد المهدوي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1998، ص 688.

(17) باشو، جان ريمون، **رواية رحلة إلى مرمرة وقورينة وواحتي أوجله ومراده**، تعريب مفتاح عبد الله المسوري، دار الجيل ودار الرواد، بيروت – طرابلس (1419 هـ 1999م)، ص 143.

(18) بريث، **نفس المصدر**، ص 289 – 290.

(19) دي لاثيلا، **نفس المصدر**، ص 77.

نجح ايتون في اختيار موقع القلعة فجعلها وسط هضبة مرتفعة تشرف منها على المنطقة بأكملها وتتحكم بالممرات الغناء التي تغطيها الأشجار الكثيفة والأعشاب (20). وقد صور لنا الرحالة باشو (21) بريشته القلعة وبين موضعها من بعيد وهي تقوم على تل مرتفع تسيطر منه على المدينة وطريقها الرئيسي.

لقد ظلت القلعة وإلى وقت ليس بالبعيد (22) أحد المعالم الأثرية التي تذكر الأهالي بالغزو الأجنبي والأحداث الجسام التي وقعت أثناء فترة الاحتلال وتعرف عندهم (بالحصار) وموقعها بالطرف الجنوبي من المدينة بمحلة المغار (23).

ويبدو أن الأتراك لم يحاولوا استغلال هذه القلعة بعد انسحاب الأمريكان منها، والسبب في ذلك يعود إلى بعدها عن مركز المدينة أو لعل الأمريكان خربوا قبل خروجهم أقسامها الداخلية جزئيا أو كليا. ومما يؤكد ذلك هو الأخوان بيتشي عام 1822م وهما أبرز من زارها فوجداها مهجورة ومخربة ومدافعها ملقاة جانبا (24) وذات الوصف يؤكده الرحالة الإنكليزي هاملتون الذي أمها سنة 1852م وذكر بأنها مهدمة بالكامل (25) ولعل هاملتون كان يقصد من وراء هذا الوصف الإشارة إلى تخريب أقسام القلعة من الداخل.

ومهما تكن درجة الصدق في وصف هؤلاء الرحالة الأجانب فإن سمث وبورشير (26) اللذين زاراها عام 1861م قد رسما جانبا من سورها ومدخلها وأحد أبراجها الأمر الذي يؤكد أن حالة القلعة في هذا الوقت كانت جيدة ومظهرها الخارجي يدل على أنها لا تختلف عن باقي القلاع المشيدة في ليبيا خلال العصر العثماني. وهي مستطيلة الشكل محصنة بأسوار قوية مبنية بالحجارة، وتكتنف أركانها الأربعة أبراج دارية ذات قواعد واسعة تضيق كلما ارتفعت إلى الأعلى والقلعة متوجة بستارة زودت بصف من المزاغل عمودية الشكل، كما زودت الأبراج بفتحات كبيرة كانت مخصصة للمدافع. والصورة التي رسمها بورشير توضح فخامة المدخل

---

(20) هاملتون، **نفس المصدر**، ص 142.

(21) باشو، **نفس المصدر** ، لوح 6.

(22) لقد تعذر علينا معرفة تاريخ إزالة القلعة على وجه التحديد، إلا أن الطرابلسي الذي أرخ لمدينة درنة يذكر نادرة نستشف منها بأن القلعة كانت قائمة في منتصف القرن العشرين، إذ صادف في اليوم الرابع من شهر يونيو سنة 1950م ذكرى عيد استقلال الولايات المتحدة، وفي هذا اليوم من السنة المذكورة قدمت إلى درنه قطعا بحرية من سفن الأسطول السادس الأمريكي وحملوا إلى القلعة لوحا تذكاريا إحياء للجنود الأمريكيين الذين قتلوا أثناء الحملة الأمريكية عام 1805م. وهذا يؤكد طبعا بأن القلعة أزيلت خلال النصف الثاني من القرن العشرين (الطرابلسي، مصطفى عبد العزيز، **درنه الزاهرة قديما وحديثا**، دار الأنيس للطباعة والنشر والتوزيع، مصراته، 1999، ص 239).

(23) **المصدر نفسه**، ص 238.

(24) بيتشي، هنري وفريدرك، **نفس المصدر**، ص 298.

(25) هاملتون، **نفس المصدر**، ص 142.

(26) Smith, op. cit., p. 61 ; pp. 1-48.

وطرازه، وهي بهذا تتطابق مع اللوحة التي رسمها الرحالة الإيطالي جوسبي هايمان (27) عام 1881م (صورة 3) وتطابق اللوحتين يؤكد بلا شك مصداقية الرسام وأمانته في نقل شكل المدخل الذي شاهده شخصيا أنذاك.

ومن الواضح أن مدخل القلعة مشيد على الطراز الأوربي الذي شاع في عصر النهضة، المتأثر بدوره بلا شك بالمداخل الرومانية الفخمة التي كانت تتوج عادة بقوصره (pediment) او كما تسمى أحيانا بالجبين المثلث. وقوام مدخل قلعتنا الموثق برسوم الرحالة كتلة كبيرة مربعة تبرز عن وجه السور بشكل لافت للنظر. وهي متوجة بشرافة تنتهي من الأعلى بقوس ويتناسب حجم الكتلة مع سعة القلعة وفخامة سورها. يتوسطها فتحة كبيرة متوجة بعقد نصف دائري يرتكز على أكتاف مزينة بتيجان مربعة، كما تحلي كتلة المدخل عدد من الأفاريز الجصية البارزة.

ولا يستبعد أن تكون القلعة عند زيارة هايمان عام 1881م مشغولة من قبل الأتراك إذ رسم الفنان مدخلها وبقربه حارسان مدججان بالبنادق وهو ما يوحي بأن القلعة كانت مشحونة بقوة عسكرية.

بقي أن نذكر بأن آخر من زارها في التاريخ الحديث من الرحالة الأجانب الأمريكيتان هيلين لويد بريستون ودورثي لوينس سمث وذلك عام 1929م وأشارتا إلى موقع القلعة وحصانتها وما حولها من المنازل المبنية بالحجارة (28). ليس هذا فقط بل تظهر إحدى الصور الملتقطة بعدسة الرحالتين جانبا من القلعة لكنها للأسف غير واضحة والحقيقة لم يحالفنا الحظ بالوقوف على صورة حديثة لهذه القلعة تعيننا أثناء الكتابة على وصفها.

3 – قلعة المرج :

من الطبيعي أن يصف دي لاشيلا المرج عام 1817 بأنها عبارة عن أنقاض لقبور وأطلال لمباني متناثرة أقيمت على أرض سهلية ذات آبار عميقة (29) وهذا الوصف الذي أكده الأخوان بيتشي (30) عام 1822 ينطبق على المدينة العتيقة (برقة) لأن المرج الحالية لم تكن مؤسسة خلال زيارة هؤلاء الرحالة. وشرع في تأسيسها عندما قرر حاكم برقة (طوسون باشا) بناء قلعة

(27) Haimann, G, Cirenaica, Milano, 1886, p. 107.
من المفيد ذكر أن الرحالة الإيطالي المعروف جزليري قد استعار اللوحة التي رسمها هايمان ونشرها في كتابه المطبوع عام 1912
انظر : Ghisleri, A., Tripolitania e Cirenaica, Milano, 1912, p. 143.

(28) هـ، لويد بريستون ود. لوينس سمث، **مدينة طرابلس بمدخليها الغربي والشرقي في رسائل إلى الأهل**، ترجمة الهادي أبو لقمة، مطابع الثورة للطباعة والنشر، بنغازي، 1980، ص 107.

(29) Della Cella, P., Narrative of an Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt in 1917, London, 1822, p. 217.

(30) بيتشين هنري وفريدرك، **نفس المصدر**، ص 266-267.

فيها عام 1840 لمد نفوذه باتجاه الجبل الأخضر، والسيطرة على القبائل العربية المناوئة لسياسته في جمع الضرائب (31). وقد أنيط أمر الإشراف على البناء بالقائمقام محمد الكخيا الذي اتخذها فيما بعد مقرا له ولإدارته وللحامية العسكرية (32).

وينقل بازامة ما أورده الأب روفيري في تاريخ برقة الكرونولوجي أن قصر المرج قد استكمل بناؤه عام 1842، حيث أفرزت له حامية عسكرية من الأتراك ترابط فيه بصورة دائمة (33)، وأن هذا القصر أصبح فيما بعد نواة لبلدة المرج، حيث شجعت الحكومة التركية أهالي المنطقة على تشييد المباني السكنية وإقامة بعض المحال التجارية حول القلعة، ومما لا شك فيه أن الذي شجع الناس على الاستقرار وبناء المنازل هو توفير الأمن من ناحية وفرص العمل أو المتاجرة مع جنود الحامية من ناحية أخرى.

لقد شغلت القلعة قطعة من الأرض كانت تابعة لعشية الطرش، وتذكر إحدى المصادر المهتمة بدراسة السكان في برقة خلال العصر العثماني أن الحومة العثمانية كانت تدفع للقبيلة المذكورة في بعض السنوات مبلغا من المال مقابل قطعة الأرض التي شيدت عليها القلعة (34).

تعرف القلعة عند الأهالي أحيانا (بالقصر) بوصفها من أهم مرافق المدينة وأكثرها حيوية، وقد زارها الرحالة الإنكليزي المشهور جيمس هاملتون في أكتوبر عام 1852، وحدد تاريخ بنائها قبل عام واحد من زيارته (35). كما وصفها بشيء من الإسهاب الرحالة سمث وقدر عمرها بخمسين عاما خلت وذلك أثناء زيارته للمرج عام 1861م (36). ومن الواضح أن تقدير كل من الرحالين هاملتون وسمث لتاريخ البناء لم يكن دقيقا، والفراغ من بنائها كان عام 1842م كما أسلفنا.

ومهما يكن من أمر، فالقلعة بنيت لتكون مأوى للجنود النظاميين وهي مشحونة على الدوام بسرية أو سريتين، بلغ عددهم أثناء زيارة سمث تسعين مقاتلا خمسون منهم مشاة، وفيهم ثلاثة ضباط، أما الباقي فقد كان أغلبهم على ما يبدو من الفرسان. ويحدد الرحالة أسبابا أخرى لوجودها هي قمع السكان وإرهابهم فضلا عن كونها تساعد المسؤولين على جباية الضرائب.

(31) بازامة، محمد مصطفى، **تاريخ برقة في العهد العثماني الثاني**، دار الحوار الثقافي، قبرص، 1994، ج 3، ص 59 (استلم طوسون باشا مهام عمله في بنغازي يوم 1839/6/18 بوصفه حاكما على إقليم برقة ثم استدعي إلى طرابلس لإعفائه من منصبه في الشهر العاشر من سنة 1840 وبهذا تكون قلعة المرج قد استكملت في عهد خلفه ديواني أفندي لأن مدة بنائها امتدت إلى أكثر من سنة).

(32) دي اوغسطيني، **نفس المصدر**، ص 710.

(33) بازامة، **تاريخ برقة**، ج3، ص 65.

(34) دي اوغسطيني، **نفس المصدر**، ص 710.

(35) هاملتون، نفس المصدر، ص 157.

(36) Smith, op. cit., pp. 19-20.

ولما كانت القلعة في المرج تمثل الصفة العسكرية البحتة التي تتصف بها السلطة الحاكمة في المدينة ورمزا لهيبة الجيش، فمن الطبيعي أن تزود بمدافع وزعت فوق الأبراج في أركان البناء الأربعة حيث وضع في كل برج مدفع، وصف بأنه قديم، ويطلق قذائف زنة كل منها تسعة أرطال، والمدافع كانت محمولة على عربات قديمة الطراز.

وعلى الرغم من أن سمث حاول بمساعدة بورشير رسم المرج وتأشير قلعتها في لوحة تذكارية (37) تعد الأقدم من نوعها على حد علمنا. إلا أن هذه اللوحة كانت محدودة الفائدة لصغر المنشآت المعمارية المخططة فيها. ولحسن الحظ أثارت القلعة اهتمام أحد الإيطاليين عام 1919 فصورها ونشر تلك الصورة في دليل خاص بإقليم برقة (38).

ومن الطبيعي أن يعتمد الباحث في الوصف والتحليل على الصورة الأخيرة إذ لا أثر للقلعة في الوقت الحاضر، حيث تهدمت من جراء الزلزال الذي ضرب مدينة المرج عام 1963م (39) وعلى أثره أزيلت بقاياها تماما، لتقام في موضعها مدرسة.

بنيت القلعة بكتل من الحجارة المنحوتة المأخوذة من مباني إغريقية أو إسلامية قديمة وفيها أربعة أعمدة رخامية اثنان منها يحملان تيجانا ذات طراز كورنثي ولا عجب في ذلك لأن القلعة مشيدة في الموضع القديم لمدينة برقة عاصمة الإقليم كله وهو مشهور بآثاره (40).

تتألف قلعة المرج من سور مدعم بأربعة أبراج ركنية ضخمة ذات شكل أسطواني وقد وصفت هذه الأبراج من قبل الصحفي الفرنسي جورج ريمون الذي دعي لتناول العشاء داخل القلعة بصحبة نقيب شرطة عام 1912م، وذكر بأنها كانت قصيرة (41). بيد أن الصورة السالفة الذكر التي اعتمدناها في الوصف تظهر بوضوح ارتفاع البرج الذي شغل الزاوية الواقعة على يسار الداخل إلى القلعة وهو يتكون من طابقين، أما باقي الأبراج فهي من طابق واحد حيث توحي النوافذ المفتوحة إلى الخارج بأن الأبراج كانت مجوفة على شكل حجرات دائرية لعلها استخدمت لإيواء الجند والمراقبة. لقد زودت القلعة من الأعلى بستارة فيها صف من المزاغل التي يرمى منها بالبنادق وقت الخطر ولعل الأبراج كانت مزودة بفتحات خاصة للمدافع.

---

(37) Ibid., plate-6.

(38) Bodrero, p., Itinerari della Cirenaica. Roma, 1920. Fig-8.
وانظر كذلك صورة القلعة نفسها منشورة في الدليل السياحي الخاص بإقليم برقة والذي أعده الإيطالي فانتولي عام 1921م،
Fantoli, A. Guide della Libia del Touring-club Italiano. parte seconda, Milano, 1923. p. 90.

(39) ريمون، جورج، **من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا 1912**، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ط 3، بنغازي 1988، ص 316، هامش 1.

(40) Smith, op. cit., p. 20.

(41) ريمون، جورج، **نفس المصدر**، ص 317.

ويؤدي إلى القلعة مدخل واحد متوج بعقد نصف دائري يقود إلى مجاز ينفتح على صحن واسع تحيط به أربعة أجنحة بنائية من طابق واحد وقد استخدمت الحجرة الواقعة على يسار الداخل إلى المجاز كسجن في حين خصصت الحجرة المقابلة لها مكتبا للمدير، لذلك كانت متميزة بزخارفها ونظافتها (42). وهناك حجرة أخرى كانت مخصصة للاجتماعات وصفت من قبل الرحالة هاملتون أن أضواءها خافتة وكانت خالية من الأثاث ما عدا أريكة تشغل أحد أطرافها (43).

ووجد قرب المدخل بئر يقال أنه قديم اكتشف من قبل العمال أثناء قلع الحجارة القديمة وتهيئتها لغرض البناء، وقد وصف ماء البئر بأنه غزير ومتدفق لكنه مالح قليلا (44). أما أجنحة البناية الأربعة التي تكتنف الصحن فهي على شكل قاعات كبيرة مجهزة بكافة اللوازم التي من شأنها أن تساعد الجند على الإقامة، فضلا عن وجود جناح لأصحاب الرتب العسكرية والمديرين، وكذلك علينا أن لا نغفل ذكر الإسطبل المخصص لإيواء الخيول والحيوانات الأخرى.

إن جميع القاعات الكبيرة والحجرات في الأجنحة البناية الأربعة تستمد إضاءتها وتهويتها عن طريق نوافذ متوجة بعقود منخفضة كانت موزعة بانتظام على السور الخارجي كما هي الحال في قلعة بنغازي. وهذه الظاهرة قلما نجدها في القلاع الأخرى، إذ تكون النوافذ في الأبنية ذات الصفة العسكرية على الدوام مفتوحة إلى الداخل.

4 – قلعة القيقب :

تعد واحدة من أهم القلاع التي مازالت قائمة في ليبيا، وتقع في قرية القيقب (45). وهي مقامة على تل صخري ينتصب وسط منطقة اشتهرت منذ القدم بزراعتها وينابيعها وعذوبة مياهها. إن السبب الرئيسي في اختيار هذا الموضع يعود بالدرجة الأساس إلى وفرة مياهه، ومصدرها يعتمد على أحد الينابيع المعروفة محليا باسم النبع الحي، إذ مازالت عيون هذا النبع تتدفق من لحف التل الذي شيدت فوقه القلعة، ولعل السبب الآخر هو مناعة الموضع وارتفاعه مما يجعل القلعة في مأمن حيث تسيطر منه على جميع النقاط المحيطة بها ويجنبها في الوقت نفسه أخطار السيول عند تواتر الأمطار في فصل الشتاء. أما عن تاريخ بنائها، فيذكر الرحالة الإنكليزي جيمس هاملتون أنه شاهد القلعة أثناء زيارته عام 1852م وهي تحت التشييد (46). وقد

---

(42) Smith, op. cit., p. 20.

(43) هاملتون، **نفس المصدر**، ص 155.

(44) Smith, op. cit., p. 20.

(45) القيقب قرية صغيرة تقع جنوب شحات بنحو 40 كم وكان فيها في العصر العثماني مركز للحكومة (الزاوي، الطاهر أحمد، **معجم البلدان الليبية**، دار الاتحاد العربية للطباعة، طرابلس (1388 هـ - 1968م)، ص 288).

(46) هاملتون، **نفس المصدر**، ص 77.